المعانى الاجتماعية والثقافية المرتبطة بارتداء الكِمامة فى ظل تفشى وباء كورونا: دراسة اجتماعية

خالد كاظم أبو دوح*

صاحب ارتداء الكِمامة فى ظل وباء كورونا الكثير من مظاهر الجدل والمناقشات العامة والخاصة، حول قيمة ارتداء الكِمامة كممارسة وقائية، واندلع النقاش فى العديد من الفضاءات، ووصل فى بعض المناطق إلى رفض ارتداء الكِمامة، أو ارتدائها بهدف الهروب من العقوبة، أو ارتدائها من منطلق التحايل على الحكومة، أكثر من القناعة بدورها فى الحماية، وانتشرت العديد من المعانى المرتبطة بالكِمامة، وسيطرت على مناقشات وسائل التواصل الاجتماعى، وأنتجت تدفقًا من الميمات على الإنترنت، التى تسخر أحيانًا من ارتداء الكِمامة، أو تدعم ارتداءها، لقد أصبحت الكِمامة وسيلة للدلالة على شخصية مرتديها وشعورهم بالأسلوب والمعتقدات أو موقفهم الأخلاقى فيما يتعلق بالحاجة إلى حماية أنفسهم وصحة الآخرين.

بناءً على ذلك تبلور هدف الدراسة فى محاولة الكشف عن المعانى الصحية والاجتماعية والثقافية التى يضفيها الأفراد على ممارسة ارتداء الكِمامة، وتأثيرها على تفاعلاتهم الاجتماعية، واعتمدت الدراسة على الأسلوب الوصفى الاجتماعى، من خلال عمل دراسة استطلاعية، بالاعتماد على أداة الاستبانة الإلكترونية كأداة لجمع البيانات.

مقدمة

أدى تفشى وباء كورونا إلى تغيير الحياة اليومية فى جميع أنحاء العالم تقريبًا، ففى غالبية المناطق؛ أصبح الأفراد حريصين (أو مطالبين) بالحفاظ على مسافة مادية بينهم وبين الآخرين، وغسل أيديهم بشكل متكرر، وارتداء الكِمامة (قناع الوجه) Mask فى أماكن العمل، والفضاءات العامة، وعملت الحكومات على تشجيع المواطنين وحثهم على ارتداء الكِمامة، بناءً على توصيات منظمة الصحة العالمية، مما أدى إلى زيادة كبيرة فى عدد الأشخاص الذين يرتدون الكِمامة بشكل روتينى، مقارنة بما كان عليه الوضع العادى قبل تفشى الوباء.

* أستاذ علم الاجتماع المساعد، جامعة سوهاج، مصر.

وبالرغم من العديد من صور الجدل التى صاحبت ممارسة ارتداء الكِمامة، فإنها مع مرور الوقت، أصبحت إحدى الركائز الأساسية لمواجهة تفشى فيروس كوفيد١٩، والوسيلة المعترف بها لمنع العدوى وخفض معدلات الإصابة، وبالتالى تخفيف الآثار السلبية على الأفراد والجماعات، وبالرغم من أن هناك العديد من الفوائد لعملية ارتداء الكِمامة، فإن استخدامها لم يكن إيجابيًا بالإجماع، حيث كانت هناك جماعات كبيرة من الأفراد فى غالبية المجتمعات تقاوم عملية ارتدائها، بالرغم من الإجراءات العقابية التى اتخذتها غالبية الحكومات، ضد من يمتنع عن ارتداء الكِمامة، خاصة فى أوقات ذروة موجات تفشى الوباء.

وأصبح هناك جدل كبير فى الأدبيات الطبية والصحية والدوائر الحكومية والأجهزة الإعلامية، وكل فضاءات المجال العام، حول قيمة ارتداء الكِمامة كممارسة وقائية، واندلعت العديد من النقاشات فى الكثير من الدول، وظهرت جماعات اجتماعية في بعض الدول، تحرض ضد ارتداء الكِمامة، ومن ناحية ثانية، ارتبط ارتداء الكِمامة ارتباطًا وثيقًا بالممارسات الاجتماعية والثقافية، إضافة إلى تأثيراتها المختلفة على التفاعل الاجتماعى بين الأفراد، وقد اكتسبت الكِمامة ككائن رمزى مجموعة متنوعة من المعانى الاجتماعية والثقافية والصحية، ولعل ذلك يجعل من محاولة الفهم السوسيولوجى لهذه الممارسة الجديدة، المرتبطة بهذا الحدث الاستثنائى فى تاريخ الإنسانية المعاصر، محاولة ذات أهمية فى ظل نظريات وأفكار علم الاجتماع، خاصة وأن الواقع كشف عن عدد كبير من المعانى الاجتماعية والثقافية والصحية، وتأثيرات متباينة على عملية التفاعل الاجتماعى فى الحياة اليومية بين الأفراد.

وفى أوائل مارس ٢٠٢٠، أعلنت منظمة الصحة العالمية (WHO) تفشى فيروس كورونا الجديد (Covid ١٩)، وأنه بمثابة جائحة عالمية، وأزمة صحية كبيرة، وانتقل الفيروس إلى الإنسان من خلال الحيوان، وكانت بداية ظهوره في مدينة "ووهان" الصينية فى ديسمبر ٢٠١٩، وقد انتشر الوباء فى عدد كبير من دول العالم، وأصاب ملايين الأشخاص، وتسبب فى ملايين الحالات من الوفاة أيضًا. وبالرغم من أن الأمراض الوبائية ليست جديدة على عالمنا، فإن كوفيد١٩ فيروس معقد، يقتل البالغين الأصحاء، بالإضافة إلى الأشخاص الذين يعانون مشاكل صحية، كما ينتشر وينتقل بمعدلات سريعة [١].

ولمواجهة الوباء، طبقت الدول إجراءات عديدة للكشف عن الحالات، والحجر الصحى، والتباعد الاجتماعى للحد من انتقال الفيروس وانتشاره، وقد كانت هذه الإجراءات فعالة لاحتواء

الوباء، والتقليل من الإصابات، فى بعض الأوقات، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الدول من تطبيق الإغلاق الكامل، وحظر التجوال، خاصة مع تزايد معدلات انتشار العدوى، وتصاعد أعداد المصابين بالفيروس.

ومن الإجراءات المهمة التى أوصت بها منظمة الصحة العالمية، ارتداء الأفراد الكِمامة للسيطرة على انتشار الفيروس، على سبيل المثال: فى الأماكن العامة التى يصعب تحقيق التباعد الجسدى فيها، وفى الأماكن المغلقة، مثل: المحلات والسوبر ماركت، وأماكن العمل، وفى هذا السياق، تراكمت الأدلة على أن الكِمامة يمكن أن تسهم بشكل فعال فى احتواء الفيروس، بما أنها تقلل من انتشار الرذاذ الصادر أثناء الكلام [٢].

وفى مصر، أعلنت الحكومة فى الرابع عشر من فبراير ٢٠٢٠، عن ظهور أول إصابة بفيروس كورونا، وتعاملت الحكومة منذ اللحظة الأولى مع هذا الأمر، وتبنت جميع الإجراءات الاحترازية التى أوصت بها المنظمات الصحية الوطنية والعالمية [٣].

وفى هذا السياق، صدر قرار مجلس الوزراء رقم (٢٧٠١) لسنة ٢٠٢٠ بتاريخ ٢٠٢٠/١٢/٢٨، الذى ينص فى مادته السابعة على ما يلى: يلتزم المواطنون بارتداء الكِمامة الواقية أثناء تواجدهم بجميع وسائل النقل الجماعية، سواء العامة أو الخاصة، وأثناء ترددهم بجميع الأماكن العامة المغلقة التى تستقبل الجمهور، والأماكن العامة التى تعذر تحقيق التباعد الاجتماعي المطلوب فيها طبقًا للاشتراطات الصحية ... [٤]. وفى يوم ٢٠٢٠/١٢/٢٩، أصدر وزير العدل المصرى قرارًا بمنح مأمورى الضبط القضائى، كل فى نطاق اختصاصه الوظيفى، سلطة ضبط الجرائم الواردة بقرار مجلس الوزراء الخاصة بمواجهة بفيروس كورونا، اعتبارًا من ٢٠٢١/١/٣. وتعبر هذه القرارات عن تبنى الحكومة المصرية سياسة إلزامية بارتداء الكِمامة، وتعتبر السياسة الإلزامية Mandatory Policy حلًا فعالًا وعادلًا ومسؤولًا اجتماعيًا للحد من انتقال الفيروس[٥].

وبالرغم من توصية منظمة الصحة العالمية بضرورة ارتداء الكِمامة كإحدى آليات مكافحة تفشى وباء كورونا، والتزام غالبية الدول ومنها مصر بتبنى هذه التوصيات وفق سياسات إلزامية، فإن الواقع المعاش عكس اختلافًا فى ممارسة ارتداء الكِمامة بشكل كبير من بلد إلى آخر، ومن منطقة إلى أخرى داخل البلد الواحد، بناء على السمات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية، فعلى مستوى الدول، كانت دول جنوب وشرق آسيا من أعلى الدول وأقواها استجابة، ويفسر ذلك بأن هذه الدول تتضمن ثقافة ارتداء الكِمامة من قبل وباء كورونا [٦].

وفى مصر، بالرغم من تشجيع الحكومة ووسائل الإعلام للجمهور على ارتداء الكِمامة، وإقرار عقوبة الغرامة على المخالفين، فإن الكثير من الشواهد أكدت أن تبني الممارسة جاء متباينًا بين محافظات مصر ومناطقها المختلفة، وارتبطت زيادة عدد الأفراد الذين يرتدون الكِمامة بالاستجابة التلقائية، بحملات الترويج القوى لها من خلال الحملات الصحية، والتذكيرات المنتظمة التى نشرتها وزارة الصحة المصرية من خلال وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعى.

ولقد صاحب ممارسة ارتداء الكِمامة الكثير من مظاهر الجدل والمناقشات العامة والخاصة، وكان هناك جدل كبير فى الأدبيات الصحية والبرامج الطبية والدوائر الحكومية ووسائل الإعلام، حول قيمة ارتداء الكِمامة كممارسة وقائية، واندلع النقاش فى العديد من الفضاءات، ووصل فى بعض المناطق إلى رفض ارتداء الكِمامة، أو ارتدائها بهدف الهروب من العقوبة، أو ارتدائها من منطلق التحايل على الحكومة، أكثر من القناعة بدورها فى الحماية، وفى بعض الدول الأخرى وصل الأمر إلى العديد من مظاهر الاحتجاج والاضطراب السياسى، والتحريض من قبل بعض الحركات الاجتماعية ضد ارتداء الكِمامة.

كما ظهرت العديد من الممارسات الشعبية التي تدعو للتأمل، مثل: أن الشخص يحتفظ بالكمامة ولا يرتديها إلا إذا اضطر لذلك فى مصلحة حكومية، أو فى حالة الطوارئ، يمكن لشخص يقترض كمامة زميله أو صديقه، والعديد من الممارسات الأخرى التى تجد فيها فقدانًا للمعانى الصحية المرتبطة بالكمامة.

وفى هذه الأوقات أيضًا، انتشرت العديد من المعانى المرتبطة بالكِمامة، وإعادة استخدام الكِمامة فى الثقافة الشعبية، وسيطرت على مناقشات وسائل التواصل الاجتماعى، وأنتجت تدفقًا من الميمات على الإنترنت، والبوستات والتغريدات وصور الانستغرام ومقاطع الفيديو، التى تسخر أحيانًا من ارتداء الكِمامة، أو تدعم ارتداءها، لقد أصبحت الكِمامة وسيلة للدلالة على شخصية مرتديها وشعورهم بالأسلوب والمعتقدات أو موقفهم الأخلاقى فيما يتعلق بالحاجة إلى حماية أنفسهم وصحة الآخرين [٧].

لقد أصبحنا نعيش فيما يمكن أن نطلق عليه (مجتمع كوفيد) أو (مجتمع كورونا)، ذلك المجتمع الذى لم يتم تجربته بعد أو تخيل آثاره على المدى الطويل، كل شيء تغير، لقد أنتجت أزمة فيروس كورونا أشكالًا جديدة من التواصل الاجتماعى، وطرقًا جديدة للعيش والتنقل عبر المكان والزمان، وفى قلب هذا المجتمع أصبحت الكِمامة شيئًا مهمًا، حيث تم وضعها كإحدى

الطرق الرئيسة التى يمكن للأفراد من خلالها حماية أنفسهم والآخرين من الإصابة والعدوى، كما أن الأفراد أضفوا الكثير من المعانى الرمزية والاجتماعية والثقافية والسياسية على الكِمامة، فبالإضافة إلى قيمتها العملية، اكتسبت الكِمامة "قوة الأشياء" الجديدة، لأنها تتحد مع الأجساد البشرية، وتصبح جزءًا منها.

بالإضافة لما سبق، كان لارتداء الكِمامة تأثيرات ملحوظة على التفاعل الاجتماعي بين الأفراد، فقد أشارت دراسة [٨] إلى أن التواصل بين الأفراد قد تأثر بشدة خلال جائحة كوفيد١٩، فارتداء الكِمامة يكتم الأصوات، ويخفى تعابير الوجه، التى تسهل الفهم أثناء التفاعل وجهًا لوجه. كما أشارت دراسة [٩] إلى أن الكِمامة تؤثر على قدرة الإنسان على قراءة مشاعر الآخر خلال التفاعل الاجتماعى، وأن الكِمامة التى تغطى جزءًا من الوجه تحد من قدرة الأشخاص من جميع الأعمار على تبادل التفاعلات أثناء التواصل المباشر. ولقد أكدت دراسة [١٠] أهمية النشاط الحركى وتعبيرات الوجه فى التواصل العاطفى، كما أن لها آثارًا مهمة على السلوكيات التى تنطوى على تغطية الجزء السفلى من الوجه أو إخفائه، ولذلك كل هذا يتأثر سلبيًا أثناء ارتداء الكِمامة.

وبالرغم من المعانى الصحية والاجتماعية والثقافية والسياسية التى تعبأت بها الكِمامة، وتأثيراتها السلبية على شكل التفاعل والتواصل الاجتماعى بين العديد من الأفراد فى المجتمع المصرى، إلا أن غالبية الدراسات الاجتماعية لم تلتفت لذلك، وركز سيل الدراسات الذى ارتبط بجائحة كورونا على موضوعات وأبعاد أخرى، وفى سياق هذا التراث العلمى الكبير، كانت الكِمامة فى بعضه مجرد إشارات باعتبارها أحد الإجراءات الاحترازية، بمعنى التركيز على مستويات الالتزام بارتداء الكِمامة.

وفى هذا السياق تعاملت دراسة [١١] مع ارتداء الكِمامة باعتباره أحد مؤشرات الصمود لدى الأفراد فى مواجهة الوباء، وكشفت بيانات الدراسة عن ضعف التزام عينة الدراسة بارتداء الكِمامة، التى جاءت فى المرتبة قبل الأخيرة بين سبعة إجراءات احترازية.

على هذا الأساس، تعتبر الدراسة الراهنة ارتداء الكِمامة وما تحمله من معانٍ متعددة، ظاهرة اجتماعية فى معظم دول العالم، وتستحق اهتمامًا بحثيًا من قبل علم الاجتماع، وعلى ذلك تتبلور مشكلة الدراسة من خلال دراسة المعانى الصحية والاجتماعية والثقافية التى أضفاها الأفراد على الكِمامة، بالإضافة إلى تأثير ارتداء الكِمامة على تفاعلاتهم الاجتماعية.

وبذلك يتبلور الهدف العام لهذه الدراسة فى محاولة الكشف عن المعانى الصحية والاجتماعية والثقافية التى يضفيها الأفراد على ممارسة ارتداء الكِمامة، وتأثيرها على تفاعلاتهم الاجتماعية، ويتفرع من ذلك الهدف عدد من الأهداف الفرعية وتتمثل فى: الكشف عن المعانى الصحية لارتداء الكِمامة فى ظل تفشى وباء كورونا، والتعرف على المعانى الاجتماعية لارتداء الكِمامة فى ظل تفشى وباء كورونا، ثم رصد المعانى الثقافية لارتداء الكِمامة فى ظل تفشى وباء كورونا، وأخيرا الكشف عن تأثيرات ارتداء الكِمامة على التفاعل الاجتماعى لدى الأفراد.

١- التحليل السوسيولوجى لسياسات ارتداء الكِمامة فى ظل وباء كورونا

اكتسبت الكِمامة وهى شيء عادى تمامًا فى عدد من السياقات؛ مثل: المستشفى أو المعمل الصحى، انتشارًا واسعًا خلال جائحة كورونا، ومن المعروف أنه فى بعض البلدان الآسيوية، مثل: اليابان، وتايلاند، وكوريا، والصين، وتايوان، يعتبر ارتداء الكِمامة فى الفضاء العام، وخارج المؤسسات الصحية والطبية، أمرًا شائعًا، ويتركز المعنى العام الذى تحمله الكِمامة فى الوقاية من العدوى، أما بعد تفشى وباء كورونا، فقد بدأت الكِمامة تصبح ذات عديد من المعانى، وستحاول الدراسة الراهنة فى هذا السياق، نزع الغموض وكشف المخبوء من معانٍ تحملها الكِمامة، وتقديم تحليل سوسيولوجى مختصر عن سياسات تغطية الوجه.

أ- الكِمامة: كائن ذو معنى

يرجع الأصل اللغوى لكلمة "الكِمامة" فى لسان العرب إلى الفعل (كمم)، ويقال "كمَمْت الشيء": أى غطيته، والكِمامة هى الشيء الذى يغطى به الوجه[١٢]. ويقابلها فى اللغة الإنجليزية كلمة (Mask)، ويعرفها قاموس أكسفورد بأنها الشيء الذى يغطى الوجه [١٣]. بناء على ذلك فإن المعنى الأصلى للكمامة يدور حول الشيء الذى يستخدم لتغطية الوجه، خاصة الجزء الخاص بالأنف والفم.

ويتواكب هذا المعنى الاصطلاحى مع كون الكمامة تدخلًا غير دوائى فعالًا للتقليل من انتشار العدوى بفيروس كورونا، الذى ينتشر بشكل أساسى من خلال الرذاذ المتطاير فى الهواء، الذى يتم زفيره عندما يتنفس المصابون أو يتحدثون أو يسعلون، أو يعطسون، ويقلل ارتداء الكمامة من انتقال الفيروس بشكل كبير، وذلك بطريقتين: الأولى: تمنع الكمامات الأشخاص المصابين من تعريض الآخرين للعدوى، عن طريق منع زفير الرذاذ المحتوى على الفيروس (التحكم فى

المصدر). الثانية: تحمى الكمامة مرتديها غير المصابين؛ حيث تشكل حاجزًا أمام قطرات الرذاذ، التى يمكن أن يتعرض لها الشخص السليم عند التفاعل أو الاقتراب من شخص مصاب [١٤].

فى ظل هذا الوضع، أصبحت الكمامة أكثر فأكثر واحدة من أهم الإكسسوارات اليومية، وتكتسب كل يوم الكثير من المعانى، كما أنها أضافت طبقات أخرى من المعانى على واجهة الذات، فيما يتعلق بتقديم الذات فى تفاعلات الحياة اليومية، وتعتبر الكمامة فى هذا السياق نوعًا محددًا من الأشياء، حيث يتم ارتداؤها فى الجزء السفلى من الوجه، وهى مساحة مهمة جدًا، حيث تتكشف العلاقات مع الآخرين بشكل رمزى وإدراكى [١٥].

من هنا أصبحت الكمامة وممارسة ارتدائها من الظواهر الاجتماعية وممارسة يومية، أو ضربًا من ضروب السلوك المتفق عليه إلى حد ما، والمقنن بسياسات إلزامية، وبالرغم من أن التخفى لم يكن ذا أهمية فى علم الاجتماع حتى ما قبل كورونا، دخلت القضايا المتعلقة بالكمامات فى مناقشات علماء الاجتماع والباحثين فى عدد من العلوم الاجتماعية الأخرى، وإن وجدت بعض الإشارات إلى التخفى فى علم الاجتماع قبل تلك الأوقات، كانت على سبيل الاستعارة، على سبيل المثال، تتوافق تحليلات "إرفنج جوفمان" Erving Goffman المستوحاة من عمله "إعمال الوجه" [١٦] مع فكرة أنه عندما يؤدى الأشخاص هوياتهم وأدوارهم الاجتماعية وحالاتهم العاطفية، فإنهم "يرتدون قناعًا"، تمامًا مثلما يفعل الممثل فى مسرحية يونانية قديمة [١٧].

ومن الجدير بالإشارة، اقتراب عدد من العلوم غير علم الاجتماع من دراسة الكمامة أو قناع الوجه، فعلى سبيل المثال: اهتمت عدد من المؤلفات الأنثروبولوجية بالأدوار التى تؤديها الكمامة فى بعض جوانب الحياة اليومية، لا سيما فى المناسبات الشعائرية، ومن خلال ذلك، يمكن الإشارة إلى أن الكمامة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بإسقاط الهوية الشخصية والاجتماعية، كما أنها تعمل كأدوات للحماية، خاصة فى أماكن محددة، وعلى ذات النحو أثناء المعارك الحربية قديمًا [١٨]. يلاحظ هنا أن معانى الإخفاء والحماية، هى المعانى الأساسية المرتبطة بغطاء الوجه.

ومن وجهة نظر سيميائية، تعتبر الكمامة طبقة من الوساطة الدلالية، التى تجعل التنظيم الذاتى للجسد أكثر تعقيدًا، فالكمامة جزء من الشخص الذى يرتديها والبيئة الاجتماعية، إنها واجهة تعمل فى ذات الوقت على إيجاد مسافات بين الذات والآخر، وتعمل كوسيط فى الحوار التلقائى مع المغاير، فمن خلال ارتداء الشخص للكمامة، ينتج طبقات مختلفة من المعانى والدلالات، وعمليات

التنظيم، "على سبيل المثال: أنا فى أمان، الإيحاء بالثقة فى الآخرين، أنا مواطن ملتزم بتوجيهات الحكومة"[١٩].

ب- تاريخ غطاء الوجه: نظرة مختصرة

ليس من السهل تحديد الظهور الأول لغطاء الوجه، بغض النظر عن المسمى الخاص به (قناع، لثام، حجاب، نقاب، كمامة ... إلخ)، أو تحديد وظيفته الأولى، أو مبررات ارتدائه، فالكثير من السرديات التاريخية، توضح الاختلافات الثقافية والوظيفية والممارسات المرتبطة بإخفاء منطقة الوجه، فالثابت تاريخيًا، أنه تم ارتداء أغطية الوجه فى الكثير من البلدان، وبمسميات ومبررات متباينة، والأهم مبررات غير المخاوف الصحية أو نقل العدوى.

وعلى سبيل المثال، الحجاب الذى يعتمد على تغطية الوجه بالكامل أو بشكل جزئى بالنسبة للنساء، يعتبر ممارسة شائعة على أساس دينى أو شكلًا من أشكال الاحتشام فى العديد من الدول الإسلامية، وخاصة فى منطقة الشرق الأوسط، وبالرغم من ذلك، هناك إشارات تاريخية، تؤكد أن الحجاب أو تغطية الوجه بالنسبة للمرأة كان منتشرًا قبل الإسلام، وفى مجتمعات غير إسلامية، ويتضح ذلك من وصف "ابن جبير" لزى النساء المسيحيات فى جزيرة صقلية، وعلى وجه الخصوص مدينة "أطرابنش"، حيث قال: وزى النصرانيات فى هذه المدينة زى نساء المسلمين، فصيحات الألسن، ملتحفات، منقبات. وقد أشار "قاسم أمين، فى كتابه "تحرير المرأة" قائلًا: كلُّ مَن عرف التاريخ يعلم أن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة قال "لاروس" تحت كلمة خِمار "كانت نساء اليونان يستعملن الخمار إذا خرجن ويخفين وجههن بطرف منه، كما هن عند الأمم الشرقية. وقال أيضًا: ترك الدين المسيحى للنساء خمارهن، وحافظ عليه عندما دخل البلاد؛ فكنَّ يغطين رؤوسهن إذا خرجن فى الطريق وفى وقت الصلاة، وكانت النساء تستعمل الخمار فى القرون الوسطى خصوصًا فى القرن التاسع؛ فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة، ويجرُّ على الأرض تقريبًا [٢٠].

وفى بلدان مثل: اليابـان والصين وكوريا ودول شرق آسيا، يتم ارتداء قناع الوجه، كتقليد ممتد تاريخيًّا فى هذه المجتمعات، وعادة ما يتم ارتـداء الأقنعة الطبية، التى يمكن التخلص منها فى أشهر الشتاء للحماية من الإصابة بالأمــراض المعدية، مثل: نزلات البرد والأنفلونزا، وفى أوقات أخرى كوسيلة للتخفيف من تلوث الهواء، وقد شجعت سلطات الصحة العامة الصينيين على

ارتداء الكمامات منذ أوائل القرن العشرين، عندما واجهت الصين تفشى الطاعون والأنفلونزا الإسبانية والكوليرا، وغيرها من الأمراض المعديــة، وفى اليابــان يرتــدى الناس الكمامة – إلى حد كبير – بدافع العادة، وكشكل من أشكال الطقوس الصحية، وفى حالة النساء، لحماية وجوههن من أشعة الشمس [٢١].

أما فى غالبية دول شمال الكرة الأرضية، فكان معظم الأشخاص الذين لم يكونوا عاملين فى المجال الصحى، قبل تفشى وباء كورونا، لديهم خبرة قليلة أو معدومة فى ارتداء الكمامة، كإجراء صحى ووقائى يومى[٢٢]، وتنطبق ذات هذه الفكرة على العديد من المجتمعات العربية، التى لم تعتد شعوبها على هذا الأمر، ولذلك كان على شعوب هذه الدول أن يتعلموا كيفية فهم إخفاء الوجه كممارسة وقائية، ودمج ارتداء الكمامة فى ممارساتهم اليومية وروتينهم، ولا شك أن هذا التفاعل مع الكمامة، سينتج العديد من المعانى الصحية والاجتماعية والثقافية، بالإضافة إلى تأثر طبيعة تفاعلاتهم الاجتماعية واتصالهم بالآخرين.

٢- النظريات الاجتماعية المفسرة لإخفاء الوجه والتفاعل الاجتماعى

من المهم فى البداية، الإشارة إلى أن فهم تفاوضات ارتداء الكمامة لا يمكن أن يتحقق خارج سياق القوانين أو القرارات الحالية التى تفرض إخفاء الوجه بناءً على توصيات المؤسسات الصحية، مما يدل على أن المعانى القانونية والاجتماعية والثقافية للكمامة سوف يستمر التفاوض بشأنها، وقد تتغير مع الوقت، وأخيرًا، اتجهت عدد من الدول إلى إلغاء القوانين الخاصة بارتداء الكمامة، ورفع غالبية الإجراءات الاحترازية التى اتخذتها فى ذروة تفشى الوباء.

وهنا سوف نتعرض بالتحليل لبعض المقاربات النظرية الاجتماعية، التى يمكن من خلالها فهم وتفسير عملية إخفاء الوجه (ارتداء الكمامة) وعلاقتها بالتفاعل الاجتماعى، وذلك على النحو التالى.

أ - المادية الاجتماعية

تم استخدام نظرية الماديــة الاجتماعيــة Sociomaterialism Theory فى سياق هذه الدراســة لفهم كيفية تعامل الأفـراد مع ارتداء الكمامة، والمعانى التى أضفوها على هذه الممارسة، ووفق مقاربة المادية الاجتماعية، يتم تصور جسم الإنسان على أنه مسامٍ ومتعدد، ومتغير الشكل،

ومتحرك وغير متجانس، ويستجيب للبيئة التى يعيش فيها بطرق متعددة، قد تزيد أو تحد من قدرته التفاعلية [٢٣].

وتضع نظرية المادية الاجتماعية الأشياء المادية مثل: الكمامة فى الدراسة الحالية، كأداة أو كائن يجمع الإنسان بأشياء ليست بشرية أو مادية، ويترتب على ذلك أن يقوم الإنسان بإنتاج معانٍ وتمثيلات اجتماعية ورمزية يضفيها على هذا الكائن.

ويوضح شكل رقم (١) كيفية تضمين بعض الأشياء المادية مع الجسم البشرى، وكيفية تفاعل الإنسان مع أى شىء مادى يصبح جزءًا من جسده (مثل: الكمامة، النظارة، الهواتف الذكية ... إلخ) [٢٤].

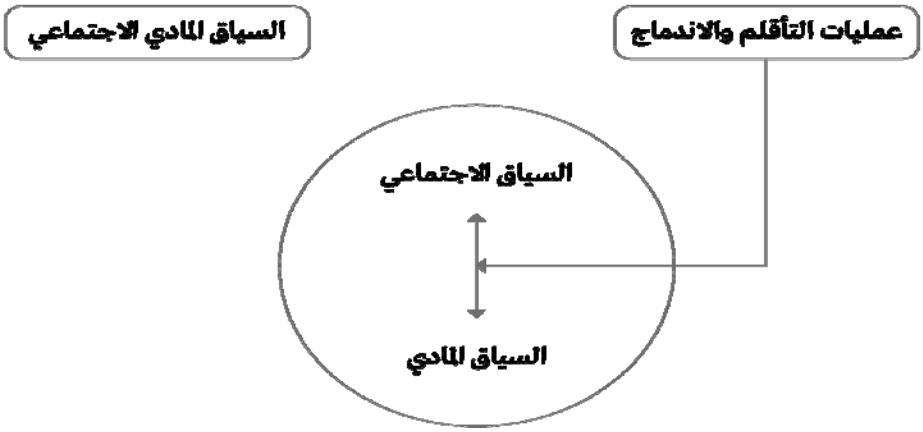

ويتم تصميم هذه الأشياء المادية كالكمامة مع وضع استخدامات متخيلة ومحددة فى الاعتبار– أو الإمكانات، ولكن تمتلك الأجسام البشرية أيضًا إمكانات: القدرة على الكلام، الإحساس، الحركة، إنتاج المعنى، وممارسة الوعى على محيطهم [٢٥].

واستكمالًا لأفكار المادية الاجتماعية، يمكن تعميق الرؤية النظرية من خلال كتابات "ميشيل فوكو" Michel Foucault حول السياسة الحيوية والسلطة والحوكمة، وكيف تدار الأجساد البشرية من خلال دمج النصائح والتوجيهات الصحية المتعلقة بالسلامة فى الممارسات اليومية [٢٦].

وتسلط كتابات "فوكو" مزيدًا من الضوء على التقاطعات بين إنتاج المعرفة الطبية، ودور مؤسسات تعزيز الصحة والمراقبة، والتركيز على المسؤولية الشخصية للحفاظ على صحة جيدة، وفكر "فوكو" فى الطرق التى تعمل بها أشكال معينة من المؤسسات، مثل: العيادات الطبية، الملاجئ، السجون، بهدف تأديب الأجساد وتنظيمها ومراقبتها [٢٧].

وبناءً على هذا الإسهام الذى قدمه "فوكو" حدد علماء الاجتماع، كيف يتم تكليف الوزارات والهيئات الصحية بجمع البيانات وتنظيم الحملات الإعلامية، لتنظيم صحة السكان، بما فى ذلك الاستراتيجيات التى يجب على الأفراد استخدامها لحماية أنفسهم من الأمراض المعدية، ولعل هذا ما حدث أثناء جائحة كورونا.

ب - إخفاء الوجه بالكمامة والتفاعل الاجتماعى على ضوء رؤية إرفنج جوفمان

تقوم نظرية التفاعلية الرمزية على افتراض حاسم بأن البشر يمتلكون القدرة على التفكير، ويتم تشكيل هذه القدرة وتقلها من خلال التفاعل الاجتماعى، وهذا الأخير مسؤول عن إنتاج المعانى، فالأفراد يتعلمون وينتجون الرموز والمعانى من خلال التفاعل الاجتماعى، وجاء بعد ذلك "إرفنج جوفمان" Erving Goffman ليضيف على هذه الفكرة مفهوم الذات، وفى هذا السياق، أشار "جوفمان" إلى أن الفرد من أجل أن يحافظ على صورة ذاتية مستقرة، يجب ألا يكون عرضة للصعود والهبوط، ولذلك يؤدى الناس أدوارًا محددة لجمهورهم الاجتماعى، نتيجة لهذا الاهتمام بالأداء، صاغ "جوفمان" نظريته حول الدراما الاجتماعية، أو الحياة كسلسلة من العروض المسرحية أو الدرامية [٢٨].

وينظر "جوفمان" إلى المضمون التعبيرى فى تفاعلات الحياة، مثل: اللغة والإشارات والإيماءات وغيرها، مما يطلق عليه مصطلح "حاملات العلامات" باعتبارها مصدرًا للانطباعات التي يتركها الفرد فى الآخرين أو يكونها عنهم، وتعتبر الانطباعات فى هذا السياق مصدرًا للمعلومات والحقائق الخفية، ووسيلة لتحديد طبيعة الاستجابات والتفاعل مع الآخرين، وهنا تتأكد

محورية الانطباعات، وفى التفاعل المباشر بين الفرد والآخرين، غالبا ما يعتمد فى إدارة الانطباعات على التعبيرات اللفظية ولغة الجسد وملامح الوجه [٢٩].

هنا، تظهر أهمية الوجه وكأنه الآلية الأساسية للرسوخ الاجتماعى للذات فى عيون الآخرين، يفترض هنا أننا متفرجون على سلوكنا الخاص، ونسعى لتخيل التأثير الذى سيحدثه علينا، ومن خلال تخيل كيف ينظر إلينا الآخرون، يمكن لنا تقييم سلوكنا، وبالتالى فإن الصورة الذاتية المتولدة من خلال علاقتنا بالآخرين بشكل انعكاسى، تدفعنا إلى التصرف بطريقة مقبولة اجتماعيًا [٣٠].

وبناء على ذلك يؤدى الوجه دورًا محوريًا فى إدارة الانطباعات خلال التفاعلات الاجتماعية، وقد اعترف "جوفمان" بأنه من المهم أن يكون لديك مشاعر مرتبطة بالذات، وأن يتم التعبير عنها من خلال الوجه، وقد عرف "جوفمان" الوجه بأنه: القيمة الاجتماعية الإيجابية التى يدعيها الشخص لنفسه من خلال الخط الذى يفترض الآخرون أنه قد اتبعه أثناء اتصال أو تفاعل محدد[٣١]، ولذلك كله، من المتوقع أن إخفاء الوجه بالكمامة، يؤدى إلى فقدان القدرة على إدارة الانطباعات، أو معرفة انطباعات الطرف الآخر للتفاعل، مما يؤثر سلبيًا على التفاعل والتواصل الاجتماعى بين الأفراد، كما أنه من المتوقع أن يستبدل الأفراد المعانى التى ينتظرونها من الوجوه، بأشياء أخرى، يمكن من خلالها الوصول لإدارة انطباعاتهم عن ذواتهم وعن الآخرين.

٣- الإجراءات المنهجية للدراسة

بناء على أن هدف الدراسة هو استكشاف المعانى الصحية والاجتماعية والثقافية المرتبطة بارتداء الأفراد للكمامة فى ظل تفشى وباء كورونا، إضافة إلى تأثيراتها على الاتصال والتفاعل الاجتماعي، فإن الدراسة هى دراسة استكشافية، تهدف أساسًا إلى استطلاع الظروف المحيطة بممارسة ارتداء الكمامة، التى هى ممارسة جديدة على العديد من المجتمعات البشرية – إلى حد ما – كما أنه لم يسبق فى علم الاجتماع رصد أو دراسة المعانى المرتبطة بالكمامة.

اعتمدت الدراسة على الأسلوب الوصفى، من خلال عمل استطلاع ميدانى، بالاعتماد على أداة الاستبانة الإلكترونية كأداة لجمع البيانات. وتم صياغة الاستبانة بناء على عدد من المحاور؛ منها **المحور الأول:** البيانات الأساسية، **المحور الثانى:** المعانى الصحية لارتداء الكمامة. و**المحور الثالث:** المعانى الاجتماعية المرتبطة بارتداء الكمامة. **والمحور الرابع:** ركز على المعانى الثقافية لارتداء الكمامة، وأخيرًا المحور الخامس: ركز على تأثيرات ارتداء الكمامة على تواصل الأفراد

وتفاعلهم مع الآخرين. تم عرض الاستبانة على عدد من المحكمين المتخصصين فى علم الاجتماع ومناهج البحث، وأسهمت ملاحظاتهم فى تطوير أداة البحث.

قام الباحث بنشر وإرسال الاستبانة الإلكترونية عبر تطبيقات التواصل الاجتماعى، وذلك خلال الفترة من منتصف شهر يناير ٢٠٢١ إلى نهاية شهر إبريل ٢٠٢٢.

استجاب للاستبانة الإلكترونية (٢٥٣) مبحوثًا، وبعد المراجعة المكتبية للاستجابات، واستبعاد الاستجابات غير المكتملة، استقر حجم العينة عند (٢٤١) مبحوثًا، ووفق تلك الطريقة تعتبر العينة عمدية، حيث أكدت بعض كتب مناهج البحث أن العينة التى يتم الوصول إليها من خلال نشر الاستبانة وتداوله إلكترونيًا، تعتبر عينات عمدية. ويمكن تبرير ذلك، بأنه خلال هذه الفترة، كان من الصعب اختيار عينة عشوائية، ومقابلة المبحوثين وجهًا لوجه، فى ظل ظروف تفشى الوباء.

٤- نتائج الدراسة

جلبت جائحة كورونا كثيرًا من الأشياء فى مقدمة الخطاب العام، مثل: الكمامة واللقاح والتباعد الجسدى وغير ذلك، ففى ظل هذه الظروف الاستثنائية التى عايشناها ويمكن أن نعيشها مرات أخرى فى المستقبل، أصبحت الكمامة وارتداؤها ممارسة حاضرة فى حياتنا اليومية، وقد يقرر قطاع من الناس عدم التخلى عن ارتدائها فى الأنشطة العامة، ولعل هذا الواقع الجديد، هو ما دفعنا إلى تساؤلات البحث الراهن، والتى سنجيب عنها فى الجزء التالى:

أ- المعانى الصحية لارتداء الكمامة

تعتبر المعانى الصحية المرتبطة بالكمامة هى المعانى الأساسية فى عمل الكمامة ووظيفتها، حيث يوصى بارتداء الكمامة كجزء من الأدوات الخاصة بالحماية الشخصية، وكإجراء وقائى للصحة العامة[٣٢]، ولذلك يبدو من المهم استكشاف هذا المعنى عند عينة الدراسة، وهذا ما توضحه بيانات جدول رقم (١)، وذلك على النحو التالى:

جدول رقم (١)

المعانى الصحية لارتداء الكمامة

م	العبارة		الاستجابة					المتوسط	الانحراف المعيارى	الترتيب
			غير موافق بشدة	غير موافق	محايد	موافق	موافق بشدة			
١	يجب ارتداء الكمامة فقط من قبل الشخص الذي تظهر عليه الأعراض	ك	٥١	١٠٤	١٩	١٩	٤٨	٢,٦٢	١,٤٢١	٦
		٪	٢١,٢	٤٣,٢	٧,٩	٧,٩	١٩,٩			
٢	ارتدي الكمامة إذا كان جميع من حولي يرتدونها	ك	٢٥	٢٥	٢٥	٢٥	٢٥	٣,١٥	١,٣٦٥	٤
		٪	١٠,٤	٣٢,٠	١٢,٩	٢١,٦	٢٣,٢			
٣	أشعر بالحرج الشديد وأنا ارتدي الكمامة في الأماكن العامة	ك	٨٩	١٢٣	٩	١١	٩	١,٨٧	٠,٩٥٥	٨
		٪	٣٦,٩	٥١,٠	٣,٧	٤,٦	٣,٧			
٤	ألتزم بارتداء الكمامة في أماكن محددة، خاصة التي تشترط ذلك، مثل مكان العمل أو المؤسسات الحكومية	ك	٢٦	٥٧	٢٦	٦٤	٦٨	٣,٣٨	١,٣٨٨	٣
		٪	١٠,٨	٢٣,٧	١٠,٨	٢٦,٦	٢٨,٢			
٥	الكمامة تعطى الأشخاص إحساسًا زائفًا بالأمان	ك	٤٢	١٠٩	٤٦	٢٧	١٧	٢,٤٥	١,١١٧	٧
		٪	١٧,٤	٤٥,٢	١٩,١	١١,٢	٧,١			
٦	الكمامة تجعلني أتنفس بصعوبة	ك	١١	٣٦	٤٥	٧٩	٧٠	٣,٦٧	١,١٧٥	١
		٪	٤,٦	١٤,٩	١٨,٧	٣٢,٨	٢٩,٠			
٧	توفر الكمامة فوائد صحية قليلة	ك	٢٤	٧٥	٨٠	٤٣	١٩	٢,٨٣	١,٠٨٥	٥
		٪	١٠,٠	٣١,١	٣٣,٢	١٧,٨	٧,٩			
٨	أحرص على ارتداء الكمامة حتى لا توقع علىّ عقوبة الغرامة المقررة لعدم ارتدائها	ك	١٦	٥٥	٣٥	٧٨	٥٧	٣,٤٤	١,٢٥٧	٢
		٪	٦,٦	٢٢,٨	١٤,٥	٣٢,٤	٢٣,٧			
المتوسط العام								٢,٩٢	٠,٧٥٣	

تكشف بيانات جدول رقم (١) أن هناك إدراكًا مرتفعًا إلى حد ما لدى عينة الدراسة بالمعانى الصحية لارتداء الكمامة، حيث بلغ المتوسط الحسابى العام للاستجابات (٢,٩٢) درجة من (٥) درجات، بانحراف معيارى (٠,٧٥)، أما على مستوى الفقرات فقد تباينت متوسطات الفقرات بين (١,٨٧) و (٣,٦٧) درجة.

وجاءت عبارة "الكمامة تجعلنى أتنفس بصعوبة" فى المرتبة الأولى، بمتوسط حسابى بلغ (٣,٦٧) درجة، وبانحراف معيارى (١,١٧)، وفى المرتبة الثانية، جاءت عبارة "أحرص على ارتداء الكمامة حتى لا توقع علىَّ عقوبة الغرامة المقررة لعدم ارتدائها"، بمتوسط حسابى بلغ (٣,٤٤) وبانحراف معيارى (١,٢٥)، وفى المرتبة الثالثة، جاءت عبارة "ألتزم بارتداء الكمامة فى أماكن

محددة، خاصة التى تشترط ذلك، مثل مكان العمل أو المؤسسات الحكومية"، بمتوسط حسابى (٣,٣٨)، وبانحراف معيارى (١,٣٨)، أما فى المرتبة الرابعة، فجاءت عبارة "أرتدى الكمامة إذا كان جميع من حولى يرتدونها"، بمتوسط حسابى بلغ (٣,١٥)، وانحراف معيارى بلغ (١,٣٦)، وفى المرتبة الخامسة، جاءت عبارة "توفر الكمامة فوائد صحية قليلة"، بمتوسط حسابى (٢,٨٣)، وانحراف معيارى (١,٠٨)، وفى المرتبة السادسة، جاءت عبارة "يجب ارتداء الكمامة فقط من قبل الشخص الذى تظهر عليه الأعراض"، بمتوسط حسابى مقداره (٢,٦٢)، وانحراف معيارى (١,٤٢)، وجاءت عبارة "الكمامة تعطى الأشخاص إحساسًا زائفًا بالأمان" فى المرتبة السابعة، وبلغ المتوسط الحسابى (٢,٤٥)، وبانحراف معيارى قدره (١,١١)، وفى المرتبة الثامنة والأخيرة، جاءت عبارة "أشعر بالحرج الشديد وأنا أرتدى الكمامة فى الأماكن العامة"، بمتوسط حسابى (١,٨٧)، وبانحراف معيارى بلغ (٠,٩٥).

ب- المعانى الاجتماعية لارتداء الكمامة

يوضح جدول رقم (٢)، المعانى الاجتماعية لارتداء الكمامة لدى عينة الدراسة، وذلك على النحو التالى:

جدول رقم (٢)

المضامين الاجتماعية لارتداء الكمامة

م	العبارة		الاستجابة					المتوسط	الانحراف المعيارى	الترتيب
			غير موافق بشدة	غير موافق	محايد	موافق	موافق بشدة			
١	أعتقد أن الكمامة مجرد تصور واهم للسلامة من العدوى، وليست حماية حقيقية	ك	٥٧	١٠٠	٤٤	٢٠	٢٠	٢,٣٦	١,١٧٢	٢
		٪	٢٣,٧	٤١,٥	١٨,٣	٨,٣	٨,٣			
٢	الكمامة كانت من الأمور المبالغ فيها وساهمت فى زيادة مستوى الخوف عند الأفراد	ك	٥١	١٠٩	٣٢	٣٣	١٦	٢,٣٩	١,١٥٧	١
		٪	٢١,٢	٤٥,٢	١٣,٣	١٣,٧	٦,٦			
٣	عندما أرتدى الكمامة أشعر بأن شكلى مثير للضحك والسخرية	ك	٩٠	١١٨	١٤	١٠	٩	١,٨٨	٠,٩٦١	٤
		٪	٣٧,٣	٤٩,٠	٥,٨	٤,١	٣,٧			
٤	أخشى أن يظن الآخرون أننى مصاب إن ارتديت الكمامة فى الأماكن العامة	ك	٦٧	١٢٥	٢٣	١٣	١٣	٢,٠٩	١,٠٣٥	٣
		٪	٢٧,٨	٥١,٩	٩,٥	٥,٤	٥,٤			
المتوسط العام								٢,١٨	٠,٨٦٦	

تكشف بيانات الجدول السابق، أن المتوسط الحسابى العام لاستجابات عينة الدراسة لمحور المعانى الاجتماعية لارتداء الكمامة قد بلغ (٢,١٨) درجة من (٥) درجات، وانحراف معيارى بلغ (٠,٨٦)، أما على مستوى الفقرات، فجاءت فى المرتبة الأولى عبارة "الكمامة كانت من الأمور المبالغ فيها وساهمت فى زيادة مستوى الخوف عند الأفراد"، بمتوسط حسابى (٢,٣٩)، وانحراف معيارى (١,١٥)، وفى المرتبة الثانية عبارة "أعتقد أن الكمامة مجرد تصور وأهم للسلامة من العدوى، وليست حماية حقيقية"، بمتوسط حسابى بلغ (٢,٣٦)، وانحراف معيارى (١,١٧)، أما المرتبة الثالثة، فكانت عبارة "أخشى أن يظن الآخرون أننى مصاب إن ارتديت الكمامة فى الأماكن العامة"، بمتوسط حسابى بلغ (٢,٠٩)، وانحراف معيارى مقداره (١,٠٣)، وفى المرتبة الرابعة والأخيرة عبارة "عندما ارتدى الكمامة أشعر بأنى شكلى مثير للضحك والسخرية"، بمتوسط حسابى (١,٨٨)، وانحراف معيارى (٠,٩٦).

جـ- المعانى الثقافية لارتداء الكمامة

توضح بيانات جدول رقم (٣) المعانى الثقافية لارتداء الكمامة لدى عينة الدراسة، وذلك على النحو التالى:

جدول رقم (٣)

المضامين الثقافية لارتداء الكمامة

م	العبارة		الاستجابة					المتوسط	الانحراف المعيارى	الترتيب
			غير موافق بشدة	غير موافق	محايد	موافق	موافق بشدة			
١	الكمامة غالية الثمن أكثر حماية من تلك الكمامات الرخيصة وتشعرنى بالطمأنينة	ك	٤٦	٨٦	٥٣	٣١	٢٥	٢,٦٠	١,٢٢٨	١
		٪	١٩,١	٣٥,٧	٢٢,٠	١٢,٩	١٠,٤			
٢	الكمامة التى تحمل اسم ماركة شهيرة أو علامة مميزة تشجعنى على ارتدائها	ك	٥٩	٩٥	٤١	٢٨	١٨	٢,٣٨	١,١٨٨	٢
		٪	٢٤,٥	٣٩,٤	١٧,٠	١١,٦	٧,٥			
٣	أحرص على شراء كمامات مميزة من حيث الألوان والرسومات عليها	ك	٥١	١١١	٤٢	٢٣	١٤	٢,٣٣	١,٠٩٠	٣
		٪	٢١,٢	٤٦,١	١٧,٤	٩,٥	٥,٨			
٤	أفضل أحيانًا شراء كمامات تحمل شعارات مهمة بالنسبة لى، مثل شعار النادى الذى أشجعه، أو علم بلادى	ك	٥٨	١١٤	٣٥	٢١	١٣	٢,٢٤	١,٠٨٠	٤
		٪	٢٤,١	٤٧,٣	١٤,٥	٨,٧	٥,٤			
المتوسط العام								٢,٣٨	٠,٨٩٢	

تكشف بيانات الجدول السابق، أن المتوسط الحسابى العام لاستجابات عينة الدراسة لمحور المعانى الثقافية لارتداء الكمامة قد بلغ (٢,٣٨) درجة من (٥) درجات، وانحراف معيارى بلغ (٠,٨٩)، أما على مستوى الفقرات، فجاءت فى المرتبة الأولى عبارة "الكمامة غالية الثمن أكثر حماية من تلك الكمامات الرخيصة وتشعرنى بالطمأنينة"، بمتوسط حسابى (٢,٦٠)، وانحراف معيارى (١,٢٢)، وفى المرتبة الثانية عبارة "الكمامة التى تحمل اسم ماركة شهيرة أو علامة مميزة تشجعنى على ارتدائها"، بمتوسط حسابى (٢,٣٨)، وانحراف معيارى (١,١٨)، وفى المرتبة الثالثة عبارة "أحرص على شراء كمامات مميزة من حيث الألوان والرسومات عليها"، بمتوسط حسابى (٢,٣٣)، وانحراف معيارى (١,٠٩)، وفى المرتبة الرابعة والأخيرة عبارة "أفضل أحيانًا شراء كمامات تحمل شعارات مهمة بالنسبة لى، مثل: شعار النادى الذى أشجعه، أو علم بلادى"، بمتوسط حسابى (٢,٢٤)، وانحراف معيارى (١,٠٨).

د - تأثيرات ارتداء الكمامة على التفاعل الاجتماعى

يشير التفاعل الاجتماعى إلى عملية التأثير المتبادل الذى يمارسه الأفراد بعضهم على بعض أثناء اللقاءات الاجتماعية، خاصة اللقاءات وجهًا لوجه، التى يكون فيها الأشخاص حاضرين جسديًا بعضهم مع بعض لفترة محددة، ويعتبر التفاعل وجهًا لوجه حتى فى أبسط أشكاله، عملية أكثر تعقيدًا مما ندركه بشكل عام، إنه مكتظ بالطقوس والرموز والدلالات، التى قد لا يعترف بها أطراف التفاعل، وبناءً على رؤية "جوفمان" يتعين على الأفراد فى سياق هذه التفاعلات الاجتماعية، تقديم "وجه" يمثل الطريقة التى يريدون أن يراها الآخرون، أى أن الوجه وصورته محورية فى التفاعل الاجتماعى، وفى تحديد الانطباعات التى يكونها الأفراد بعضهم عن بعض [٣٣]، ولذلك يعتبر من المهم رصد تأثيرات ممارسة ارتداء الكمامة على التفاعل الاجتماعى، وذلك كما يعرضها الجدول التالى:

جدول رقم (٤)

تأثيرات ارتداء الكمامة على التفاعل الاجتماعى

م	العبارة		الاستجابة					المتوسط	الانحراف المعيارى	الترتيب
			غير موافق بشدة	غير موافق	محايد	موافق	موافق بشدة			
١	كثيرا ما لا أستطيع معرفة ما يقصده الآخر أثناء التفاعل نتيجة ارتداء الكمامة	ك	١٦	٥٠	٧٤	٦٩	٣٢	٣,٢١	١,١١٨	٥
		٪	٦,٦	٢٠,٧	٣٠,٧	٢٨,٦	١٣,٣			
٢	عندما أرتدى الكمامة أشعر بأننى أحتاج لبذل المزيد من الجهد لتوضيح انفعالاتى أو معرفة انفعالات الآخر	ك	١٦	٤٢	٤٨	٨٩	٤٦	٣,٤٤	١,١٧٥	١
		٪	٦,٦	١٧,٤	١٩,٩	٣٦,٩	١٩,١			
٣	بسبب ارتداء الكمامة لا أستطيع الحكم على جدية أو عدم جدية من يتفاعل معى	ك	٢٣	٤٧	٥٠	٨٧	٣٤	٣,٢٦	١,٢٠١	٣
		٪	٩,٥	١٩,٥	٢٠,٧	٣٦,١	١٤,١			
٤	أشعر بأن الحديث والتفاعل من وراء الكمامة غير مكتمل ومربك	ك	٢٢	٥٢	٥١	٧٧	٣٩	٣,٢٤	١,٢٢٢	٤
		٪	٩,١	٢١,٦	٢١,٢	٣٢,٠	١٦,٢			
٥	أجهل التعرف على مشاعر وانطباعات الشخص الذى يتفاعل معى وهو يرتدى الكمامة	ك	٢٠	٥٤	٤٠	٩٠	٣٧	٣,٢٩	١,٢١٠	٢
		٪	٨,٣	٢٢,٤	١٦,٦	٣٧,٣	١٥,٤			
المتوسط العام								٣,٢٨	١,٠٠٣	

تكشف بيانات جدول رقم (٤)، أن المتوسط الحسابى العام لاستجابات عينة الدراسة لمحور تأثيرات ارتداء الكمامة على التفاعل الاجتماعى قد بلغ (٣,٢٨) درجة من (٥) درجات، وانحراف معيارى بلغ (١,٠٠)، أما على مستوى الفقرات، فجاءت فى المرتبة الأولى عبارة "عندما أرتدى الكمامة أشعر بأننى أحتاج لبذل المزيد من الجهد لتوضيح انفعالاتى أو معرفة انفعالات الآخر"، بمتوسط حسابى (٣,٤٤)، وانحراف معيارى (١,١٧)، وفى المرتبة الثانية جاءت عبارة "أجهل التعرف على مشاعر وانطباعات الشخص الذى يتفاعل معى وهو يرتدى الكمامة"، بمتوسط حسابى (٣,٢٩)، وانحراف معيارى (١,٢١)، والمرتبة الثالثة، جاءت عبارة "بسبب ارتداء الكمامة لا أستطيع الحكم على جدية أو عدم جدية من يتفاعل معى، بمتوسط حسابى (٣,٢٦)، وانحراف

معيارى (١,٢٠)، وفى المرتبة الرابعة، جاءت عبارة "أشعر بأن الحديث والتفاعل من وراء الكمامة غير مكتمل ومربك"، بمتوسط حسابى (٣,٢٤)، وانحراف معيارى (١,٢٢)، وفى المرتبة الخامسة جاءت عبارة "كثيرًا ما لا أستطيع معرفة ما يقصده الآخر أثناء التفاعل نتيجة ارتداء الكمامة"، بمتوسط حسابى (٣,٢١)، وانحراف معيارى (١,١١).

مناقشة نتائج الدراسة

توفر بيانات هذه الدراسة ونتائجها فيما يتعلق بممارسة ارتداء الكمامة ودورها المتنازع عليه اجتماعيًا، فرصة للنظر فى علاقة الإنسان بالأشياء العادية، وكيف ينتقل الشىء من كونه هامشيًا أو جديدًا أو غير مألوف بالنسبة لغالبية الأفراد إلى شيء عادى، أو شيء متنازع عليه، ولكن فى النهاية أصبحت الكمامة أحد الأشياء اليومية التى اعتاد الكثير من الأشخاص عليها، سواء بحكم القانون، أو بحكم السلامة الصحية، كما توفر بيانات الدراسة فرصة لتأمل المعانى الاجتماعية المختلفة التى يحاول بعض الأفراد إضفاءها على هذه الممارسة الجديدة، وفيما يلى سوف تتم مناقشة لأهم النتائج وتفسيراتها على ضوء الرؤى النظرية التى انطلقت منها الدراسة، ومن خلال مقارنتها بنتائج دراسات أخرى.

١- المعانى الصحية لارتداء الكمامة

بالرغم من ثبوت المعانى الصحية للكمامة باعتبارها إحدى أدوات الحماية الشخصية من العدوى، فإن عينة الدراسة ركزت على معانٍ صحية سلبية، منها: أن الكمامة تجعل الشخص يتنفس بصعوبة؛ مما يجعل من الأهمية التفكير فى أهمية وخطورة المعانى التى يضفيها التفاعل الاجتماعى على الأشياء، فكثيرًا ما تبدو هذه المعانى مؤسسة اجتماعيًا على أفكار خاطئة وموروث شعبى غير صحيح، وبناءً على ذلك يصبح من الأهمية عدم النظر إلى ممارسة ارتداء الكمامة باعتبارها ممارسة مرتبطة بالصحة والسلامة الشخصية فحسب، بل ينبغى أن يتم تفسيرها أيضًا من خلال الأطر الاجتماعية والثقافية لدى الجماعات الاجتماعية المختلفة؛ نظرًا لأن المعرفة الاجتماعية بالأوبئة تبدو محدودة لدى قطاع كبير من المجتمع المصري، بل يمكن أن تكون هناك مجتمعات محلية فى جنوب مصر وعلى حدودها المختلفة، لا تعترف إطلاقًا بفكرة الأوبئة وخطورتها على حياة الإنسان، ويتفق ذلك مع ما أشارت إليه إحدى الدراسات التى طُبقت فى (٤٥ ولاية أمريكية) ومؤداها: أن الكمامة اتخذت معانى تتجاوز هدفها المباشر المتمثل فى الحد من

العدوى، بل هناك من أضفى على ارتداء الكمامة معانى سلبية تشكك فى قدرتها على الحماية الصحية [٣٤]، إضافة إلى ما سبق، ضرورة التفكير فى مفهوم التنفس، الذى هو عملية فسيولوجية ضرورية للغاية للحياة، والذى أصبح مرتبطًا بالمخاطر المتصلة بانتشار الأمراض المعدية، خاصة وأن انتشار الأمراض المعدية من المخاطر التى تتوقع التقارير العالمية حدوثها كثيرًا خلال السنوات القادمة [٣٥].

ويعتبر هذا المعنى الذى أشارت إليه عينة الدراسة بمثابة فعل مقاومة لارتداء الكمامة، وقد أشارت "ليبتون" إلى أن كثيرًا من الخطابات المقاومة لارتداء الكمامة اعتمدت على القدرة على التنفس لإيجاد مزاعم بأن ارتداء الكمامة أمر محفوف بالمخاطر [٣٦] وبالرغم من عدم مصداقية هذه المزاعم، والتى منها أن ارتداء الكمامة يجعل التنفس أمرًا صعبًا، فإن هذا المعنى هو فعل للمقاومة يتم تبريره من خلال المعانى الصحية، ويرتبط ذلك بفكرة التشكيك (أو عدم القبول الشعبى) فى الفوائد الصحية المرتبطة بارتداء الكمامة، ويتأكد ذلك من خلال أن عينة الدراسة أشارت إلى أن: "الكمامة توفر فوائد صحية قليلة"، أو أن "ارتداء الكمامة يجب فقط على الشخص الذى تظهر عليه الأعراض"، أو أن "الكمامة تعطى الأشخاص إحساسًا زائفًا بالأمان".

وتتناقض هذه المعانى السابقة مع المعنى الصحى لارتداء الكمامة وللفوائد المنتظرة منها، والتى تؤكدها العديد من الدراسات فى المجال الصحى والطبى، وهذا يؤكد أن ثمة مقاومة اجتماعية لعملية ارتداء الكمامة، ولذلك يبدو من الصعب أن يتبع غالبية الأشخاص التوصيات الصحية والطبية المرتبطة بالكمامة وأهميتها [٣٧]، وبشكل عام تتفق هذه التفسيرات مع عدد من الدراسات الأخرى التي تشير إلى مقاومة ارتداء الكمامة عبر مراحل تاريخية عديدة، ويبرر ذلك الفعل من خلال اعتقاد الأشخاص بعدم فاعلية الكمامة، وأنها تنتهك حرية الأفراد [٣٨].

٢- المعانى الاجتماعية لارتداء الكمامة

لا تختلف المعانى الاجتماعية التى أضفتها عينة الدراسة على الكمامة عن المعانى الصحية، حيث ثمة شك اجتماعى عام فى الكمامة ووظيفتها، وأنها من الأمور المبالغ فيها، وأنها ساهمت فى زيادة مستويات خوف الأفراد، إضافة إلى الخوف الاجتماعى العام من ظن الآخرين وشكهم فى إصابة من يرتدى الكمامة، أو أن شكل الشخص وهو يرتدى الكمامة فى الأماكن العامة يكون موضعًا للضحك وسخرية الآخرين، وترتبط مختلف هذه المعانى بالمعايير الاجتماعية، وهذه النتيجة تتفق

مع نتائج أحد المسوح فى المجتمعات الغربية، حيث أبلغت عينة الدراسة عن شعورها بأن الشخص يبدو غريبًا أو يحكم عليه الآخرون بأنه غريب عند ارتداء الكمامة [٣٩]، ويمكن ربط بعض هذه المعانى بفكرة الدور الذى يؤديه الوجه فى الحياة الاجتماعية، حيث يعمل الوجه كآلية للحفاظ على الانسجام بين الأشخاص وتحقيق الاحترام المتبادل [٤٠]، ويتفق هذا أيضًا مع رؤية "جوفمان" التى تبنتها الدراسة فى إطارها النظرى، بإشارته لأهمية الوجه فى إدارة الانطباعات خلال التفاعلات الاجتماعية، وهنا كون الوجه مخبوءًا خلف الكمامة، وأن هذا يحتمل أن يكون مصدرًا لسخرية الآخرين أو شكهم فى إصابة الآخر، يمكن أن يدفع الفرد إلى تفضيل عدم ارتداء الكمامة، أو ارتدائها فقط فى حالة الضرورة التى لا مفر منها، مثل: الدخول لأى مصلحة حكومية.

يضاف لما سبق، أن المسؤولية الفردية والجماعية والثقة فى المؤسسات والتقييم الرسمى للمخاطر والتوصيات المتعلقة بممارسة ارتداء الكمامة، كلها أمور ضرورية لمقاومة المعانى الاجتماعية التى يضفيها الفهم الشعبى على هذه التوصيات، خاصة فى ظل التنازع الاجتماعى الشعبى والرسمى حول جدوى ارتداء الكمامة، فبالرغم من أن الباحث يمكن أن يلحظ قبولًا واسعًا للتوصيات المرتبطة بارتداء الكمامة، فإنه قبول غير مكتمل، أو قبوله كخطاب، وعدم تحويله لممارسة عامة، وإلى جانب أن ممارسة ارتداء الكمامة قد تشكلت من خلال الخطاب العام، سواء على المستوى الوطنى أو العالمى، ومن خلال الأعراف الاجتماعية، فإن إدراك الأفراد للمخاطر يعتبر عنصرًا شخصيًا قويًا، حيث يبدو بعض الأفراد لا يهتمون، والبعض الآخر لا يصدق، وهناك جماعات ثالثة أكثر حذرًا [٤١]، هذا التباين فى التعاطى الاجتماعى العام مع ممارسة ارتداء الكمامة، يجب على صناع السياسات الصحية أن يضعوه فى اعتبارهم، وهم يخططون لأى سياسة صحية، لأن مثل هذه المتغيرات تبدو حاسمة فى بناء المسؤولية الفردية والجماعية، وبناء عليه تحديد الاستجابة العامة.

٣- المعانى الثقافية لارتداء الكمامة

لم تخلع عينة الدراسة على ارتداء الكمامة المعانى الصحية أو الاجتماعية فحسب، بل كانت هناك معانٍ ثقافية مرتبطة بظاهرة التسليع لكل شيء أو تحديد قيمة الأشياء وفعاليتها بناء على سعرها، أو من خلال ارتباطها بأسماء الماركات الشهيرة أو العلامات التجارية المميزة، أو ارتباط شكل الكمامة ببعض خطوط الموضة من حيث الألوان والرسومات، كل ذلك وغيره محددات ومعانٍ

ثقافية، ارتبطت بصور مختلفة حسب السياقات الاجتماعية، وهذه النتائج تدعونا للانتباه للتحول فى كيفية قيام بعض الأفراد بدمج الكمامة فى إحساسهم بالذات واستخدامه للتعبير عن أنفسهم، أو تمييز أنفسهم عن الآخرين من خلال إضفاء المعانى الثقافية السابق ذكرها.

وعلى مستوى عالمى، تم استخدام الكمامات لتوصيل رسائل سياسية وللتعبير عن الانتماء الوطنى أو السياسى، إضافة إلى توافر خيارات مرتبطة بالأزياء والموضة، بحيث لا يتمكن الأفراد الذين يرتـدون الكمامــة من دمـج أذواقهـم فى ممارسات ارتـداء الكمامــة فحسب، بل يمكنهم أيضًا الإعلان والترويج لها، ومن أمثلة ذلك: ارتداء كمامة عليها العلم الوطنى، أو شعار فريق رياضى معين، إضافة إلى قيام بعض مصممى الأزياء بدمج خطوط الموضة العالمية فى تصميم الكمامات [٤٢].

وقد عبر أحد الباحثين عن ذلك فى موقع أخبار الموضة قائلًا: قد تبدو الكمامات وكأنها إضافة غير عادية إلى روتين حياتنا اليومية، بسبب الطريقة التى تخفى بها أجزاء من أجسادنا تكون مكشوفة فى الأوقات الاعتيادية، لكن هذا لا يعنى أنه يجب إخفاء هويتنا أيضًا، فمن خلال الاختيار الصحيح لشكل الكمامة وإضفاء الرسومات والأولوان والرموز، يمكن أن تكون الكمامة شكلًا جديدًا من أشكال التعبير عن الذات والهوية [٤٣].

ولا يرتبط ارتداء الكمامة بالتعبير عن الذات وإضفاء المعانى أو الرموز الثقافية، بل يمتد إلى كونه ممارسة أخلاقية، كما أن عدم ارتداء الكمامة يعبر عن مجموعة من المعانى الثقافية المرتبطة بعدم الاهتمام بالمخاطر الشخصية للإصابة بالعدوى، أو التعبير عن الموقف المضاد لارتداء الكمامة، كما أن شراء أشكال وماركات معينة من الكمامة وارتداءها يصبح أمرًا مهمًا للكثير من الأشخاص، التى لا تترك فرصة للتعبير عن تميزها وتمايزها الاجتماعى أو الثقافى عن الآخرين، ويمكن لمشترى الكمامة أن يشعروا بالرضا عن إضفاء معانيهم الثقافية ورموزهم على الكمامات التى يرتدونها، كتعبير عن أذواقهم، وكحماية للآخرين ولأنفسهم من مخاطر العدوى.

ويتفق هذا التفسير مع ما أشارت إليه اتجاهات نظرية المادية الاجتماعية، ومؤداها قيام الإنسان بإنتاج معانٍ وتمثيلات اجتماعية ورمزية يضفيها على الكائن أو الشيء الذى يرتديه أو يتحد مع جسده، مثل الكمامة فى هذه الدراسة [٤٤].

٤- تأثيرات ارتداء الكمامة على التفاعل الاجتماعى

توضح نتائج الدراسة التأثيرات السلبية لارتداء الكمامة على التفاعل الاجتماعى بين أفراد العينة، سواء تعلق الأمر بحاجة الأفراد لبذل المزيد من الجهد لتوضيح مقاصدهم وانفعالاتهم للآخرين، أو الجهل بالتعرف على مشاعر وانطباعات الآخر، مما يضفى شيئًا من الغموض على التفاعل الاجتماعى، وعدم المقدرة على التمييز بين جدية أو عدم جدية الآخر أثناء التفاعل، وبكلمات مختصرة، لقد أضفت الكمامة الكثير من الارتباك والغموض على التفاعلات الاجتماعية، وتعتبر هذه النتيجة عامة إلى حد كبير مهما اختلفت المجتمعات والثقافات.

ففى بنجلاديش، أشارت إحدى الدراسات إلى أن عينة الدراسة أكدت التأثيرات السلبية التى عانوها نتيجة ارتداء الكمامة خلال وباء كورونا، حيث تأثرت سلبًا تفاعلاتهم الاجتماعية، حتى مع الأشخاص الذين يعرفونهم جيدًا [٤٥]، كما أشارت دراسة أخرى، إلى أنه فى الواقع، ارتداء الكمامة يجعل من الصعب التعرف على الشخص الذى نتفاعل معه، وما إذا كان يبتسم أم لا، وتغيب عنا تعابير الوجه التى هى مركزية فى معرفة الانفعالات، خاصة مع الغرباء[٤٦]، وأشارت دراسة ثالثة إلى أن ارتداء الكمامة يغطى حوالى (٦٠ إلى٧٠٪) من منطقة الوجه ذات الصلة بالتعبير العاطفى، وبالتالى قراءة المشاعر والانطباعات، وبذلك تخفى الكمامة منطقة الوجه الضرورية للتواصل غير اللفظى الفعال، مما يسبب الكثير من الاضطراب أو الارتباك أثناء التفاعل الاجتماعى [٤٧]، ولقد سردت إحدى الدراسات عددا من العوامل المرتبطة بالمواقف المضادة لارتداء الكمامة، وكان فى مقدمتها اعتقاد عينة الدراسة بأن الكمامة لها تأثيرات سلبية على التفاعلات والعلاقات الشخصية [٤٨].

وتؤكد مجمل هذه النتائج رؤية وفرضية "جوفمان" حول محورية الوجه ودوره الفاعل فى التعرف على الآخرين أثناء التفاعلات الاجتماعية وإدارة الانطباعات [٤٩]، حيث تعتبر تعابير الوجه مهمة للغاية لفهم مشاعر الآخرين ونواياهم، ولقد حققت العديد من الدراسات فى مميزات الوجه الحاسمة فى التعبير عن المشاعر، أو توصيل انطباع معين لأطراف التفاعل، فعلى سبيل المثال: تمثل العينان والفم إشارات مهمة للكشف عن التعبيرات الغاضبة أو السعيدة [٥٠].

خاتمة

بالرغم من أن وضع الكمامة على وجوهنا أثناء الوباء، يعتبر أمرًا صحيًا وجسديًا، فإنه أيضًا فعل وممارسة اجتماعية، خلقت العديد من المعانى الصحية والاجتماعية والثقافية، والتى كثيرًا ما ابتعد بها الفهم الشعبى عن المعانى الحقيقية والمقصودة، وقد كشفت هذه الدراسة عن العديد من هذه المعانى الاجتماعية المخبوءة حول التعاطى الشعبى مع ارتداء الكمامة، ويضاف لذلك أن ارتداء الكمامة يعطل طرقنا المعتادة لوجودنا اليومى عبر تفاعلات الحياة اليومية، ويعيد تشكيل علاقتنا مع الآخرين، خاصة فى ظل التأثيرات السلبية للكمامة على التفاعل والتواصل الإنسانى، والتى كشفت عنها نتائج الدراسة، ليس هذا فحسب، بل غيرت الكمامة تجارب التنفس لدينا، مثال: شعورنا فجأة بأنفاسنا تتكثف على بشرتنا أو تغمر النظارة التى نرتديها، مما يجعلنا نشعر أكثر بأجسادنا وحدودها وتسريباتها بطرق جديدة وغير مريحة فى بعض الأوقات.

ومن المهم فى سياق هذه الدراسة، الإشارة إلى أهمية الكمامة باعتبارها كائنًا ماديًا اجتماعيًا مركزيًا فى ظل فتـرة تفشى وبـاء كورونا، وإذا نظرنا لها من مقاربـــة أحاديـة، فهى ليست إلا قطعة من القماش أو البلاستيك الهش، ولكن من خلال المقاربة الاجتماعية التى قدمتها هذه الدراسة، تعتبر الكمامة كائنًا اجتماعيًا وممارسة تضمنت العديد من المعانى الاجتماعية والرمزيـــة والثقافيـة، وهى فعل اجتماعى متنازع على معانيه وقيمته، وبالرغم من ذلك انتشر ارتداء الكمامة كممارسة يومية، ومازالت موجـــودة حتى الآن فى العديد من المجتمعات والسياقات، بالرغم من إسقاط أو تجاهل الحديث عن فيروس كورونا فى غالبية وسائل الإعلام، خلال الشهور الأخيرة.

ومن الدروس المهمة التى يجب أن يعيها الفاعل الاجتماعى بعد هذه الفترة الصعبة، أن بعض الممارسات الاجتماعية البسيطة، مثل: غسل اليدين، والحجر الصحى، والتباعد الجسدى، وارتداء الكمامة، قد تبدو ممارسات مطلوبة ومرغوبة حتى مع إصابات الأنفلونزا العادية، فمثل هذا الحرص يحافظ على سلامة الشخص وسلامة الآخرين، ويجب أن نتعلم كيف نتعامل مع الكمامة باعتبارها أداة للسلامة الصحية، والتعامل معها بعناية والتخلص منها بطريقة آمنة وسليمة، بحيث لا نلقى بها فى الشوارع والحارات، ونصادفها فى كل مكان على الأرصفة والطرقات، بطريقة تهدد الصحة العامة، والعناية بالكمامة التى يعاد استخدامها، من خلال غسلها وتخزينها بالشكل

المناسب، حتى تظل عنصرًا صحيًا فعالًا، يمنع انتشار الفيروس بدلًا من تعزيز انتشاره ونقل العدوى للآخرين.

وأخيرًا، من الضرورى أن تظهر الصورة الجيدة لنا كمواطنين مسؤولين يهتمون بسلامتهم وبسلامة الآخرين، فمثل هذه الممارسات الاجتماعية، تعتبر مؤشرًا للأطر الأخلاقية وللضمير الفردى والجمعى داخل المجتمع، ومن ناحية أخرى، بالرغم من أننا قد لا نعيش أزمة كوفيد_١٩ بذات الطرق، فإننا جميعًا متورطون فيها، فالنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تقيد شروط وإمكانية وصول بعض الأفراد والجماعات للرعاية الصحية المواتية والعادلة، هى ذاتها التى توفر هذه الظروف وأكثر لأفراد وجماعات أخرى، وهذا يتطلب إعادة التفكير فى الرعاية الصحية، وضرورة أن تعمل الحكومات على الارتقاء بمستوى الأمن الصحى للمجتمع بكل أفراده وجماعاته.